

البيهاني بين المشروع التنويري والمنهج السياسي

أحمد حسين بالو

1- تمهيد

تعددت الأنشطة الدينية والعلمية والأدبية والإصلاحية التي نذر الشيخ محمد بن سالم البيهاني - رحمه الله - لها حياته بين الدعوة إلى الله جل وعلا وتقوية الناس وتعليمهم بأمور دينهم ودنياهم منذ أربعينيات القرن الماضي وبين شتى المجالات والأنشطة الاجتماعية والعلمية الأخرى.

لقد واجه الشيخ البيهاني أشكالاً متعددة من التعصب والتطرف في عدد من المناحي والاتجاهات الدينية والفكرية والتيارات المتعددة التوجه لعل أبرزها تياران هما :

أ- تيار ديني متعصب كانت لدية مفاهيم قاصرة أو مغلوبة عن شعائر الإسلام وعقيدته السمحة.

ب- تيار تحديثي لاهث وراء بريق مظاهر الحياة الحديثة، ويزعم بأن التطور والرقي لا يكون إلا بالانسلاخ من عقيدتنا وموروثنا وتاريخنا الإسلامي وبالانقياد الأعمى لكل مظاهر الحضارة الأوروبية الحديثة.

أما بالنسبة للتيار الأول (الديني) فمعروف عن الشيخ البيهاني اتصاله لأول مرة في عدن بالشيخ أحمد محمد العبادي - رحمة الله عليه - (1883-1968م) إمام وخطيب مسجد زكريا (زكو) بمدينة الشيخ عثمان، والشيخ العبادي كان عالماً فاضلاً وقوراً وتبحر في علوم الفقه والشريعة، والتفسير واللغة وكان شاعراً مجيداً وحافظاً للقرآن، فاتصل به البيهاني ونهل الكثير من علومه، وكان الشيخ العبادي شديد التمسك بمذهب الإمام (أحمد بن حنبل) - رحمه الله - ومن بعده الإمام ابن تيمية وابن قيم الجوزية - رحمة الله عليهم أجمعين - ، ومعروف أن دعوة هؤلاء كانت تمثل المرجع الفكري أو الأيديولوجي الذي تمسك بها (محمد بن عبد الوهاب) ومن ورائه (آل سعود) في بناء دولتهم السعودية وفي صراعهم السياسي والعسكري مع الأشراف في الحجاز .. ويبدو أن نجاح التجربة السعودية حينها - قد ولدت قناعة لدى الشيخ العبادي وربما أغرت به بجدوى هذا التوجه وإمكانية تكراره ونجاحه في عدن وفي جنوب شبه الجزيرة العربية الذي كان خاضعاً للسلطة الاستعمارية البريطانية

الدخيلة حينها. ولأن الدعوة الوهابية - في إطارها التاريخي ومن خلال النظرة الموضوعية التي قد تكشف عن محاسنها ومساوئها - كانت دعوة سياسية لبست أو تلبست بالغطاء الديني ونجحت في إقامة الدولة السعودية، فما المانع من تكرار هذه التجربة الفريدة في أي مكان آخر.

وقد تعرض الشيخ العبادي - رحمه الله - للأذى وللمتاعب الجمّة من قبل عدد من المشائخ والعلماء من ذوي الاتجاهات المناوئة له، وتعرض العبادي لأكثر من محاولة للاغتيال فمن حقنا هنا أن نتساءل عن من هؤلاء الذين كانت دعوة واتجاهات الشيخ العبادي تهددهم؟ وهل ثمة مصالح سياسية كانوا يخشون الشيخ من أجلها؟

الحقيقة أننا لا نمتلك أدلة واسعة وليست لدينا براهين قطعية تؤكد أو تنفي ما ذهبنا إليه، وتجيب عن كثير من التساؤلات؟ وربما احتاج الأمر إلى مزيد من البحث والاستقصاء ..

ولأن الشيخ البيحاني كان تلميذا مقربا من الشيخ (العبادي) فإنه من البديهي أن يتأثر التلميذ بأستاذه وبالتالي يلحق بالتلميذ ما لحق بالأستاذ من اتهامات وأذى ..

ولكن هذا لم يدم كثيراً إذ سرعان ما سافر البيحاني إلى القاهرة ليلتحق بجامعة الأزهر .. والتي كان لها تأثير فاعل في وعيه وتكوين ثقافته ورؤيته الفكرية.

2- البيحاني في القاهرة :

سافر البيحاني في الأربعينيات إلى القاهرة لدراسة وتلقي العلوم في الأزهر الشريف ...

ولا يخفى علينا الدور التنويري والإشعاعي الذي لعبته (القاهرة) مطلع القرن العشرين وحتى منتصف القرن وما بعده .. فقد شهدت مصر في تلك الحقبة ثورات علمية وفكرية سبقت ثورة 23 يوليو 1952م بعقود وامتد تأثيرها ليشمل عددا من الأقطار العربية ومنها اليمن...

لقد أثرت الحركة النهضة وأثرت الوعي والفكر العربي، ففي مصر انتشرت المطابع التي تصدر عشرات الصحف والمجلات والمؤلفات والترجمات، كما شهد الوسط الثقافي حركة تنويرية وفكرية محتدمة ومعارك نقدية في الندوات وفي صفحات المجلات بين الأدباء والمفكرين والكتاب من مختلف الاتجاهات والتيارات

السياسية والفكرية والثقافية ومثل هذا الجو الصاحب الذي تميزت به القاهرة حينها كان شبه معدوم أو غير موجود في اليمن إلا في نطاق ضيق ومحدود في تلك الفترة .. جاء البيهاني لتلقي الدراسة والعلوم في الأزهر الشريف ولكنه وجد نفسه في عالم آخر يموج بالحركة والنشاط والحيوية فلم تقتصر الدراسة هناك على التحصيل العلمي والمحاضرات والدروس التي كانت تلقي في جامعة الأزهر بل هي ممتدة لتشمل عددا كبيرا من المراكز الثقافية والعلمية والهيئات والصالونات إلى جانب ما تنتجه المطابع من مؤلفات وصحف ومجلات تحتوي على العشرات بل المئات من البحوث والدراسات.

وفي القاهرة عاصر الشيخ البيهاني وتعرف على كبار المفكرين ورواد النهضة من أدباء وشعراء ومفكرين وعلماء من أمثال (العقاد وطه حسين ومصطفى الرافعي وأمير البيان شكيب أرسلان) وكان من أبرز شيوخ وأصدقاء البيهاني هناك الداعية (محمد الغزالي) والشيخ (سيد سابق) صاحب الموسوعة الفقهية الشهيرة بـ (فقه السنة) أما في مجال الدراسات الإسلامية والفقه والشريعة فقد اتسعت الدراسات الأزهرية لتشمل فيما شملت فقه المذاهب المتعددة ومعرفة قواعد أصول الخلاف بين العلماء ومعرفة أن مثل هذا الخلاف قد أوجبه ضرورات الحياة وتقلباتها وبأن اختلاف شيخين - مثلا - في حكمهما على قضية واحدة قد لا يعني بالضرورة أن أحدهما على خطأ والآخر على صواب وإنما قد يرجع إلى تعدد واتساع الأحكام والاجتهادات المستنبطة تجاه تلك القضية.

3- البيهاني ومشروعه التنويري :

عاد البيهاني (رحمه الله) إلى عدن بعد أن أتم دراسته الأزهرية بكفاءة واقتدار - الأهم من ذلك أنه عاد برؤية أخرى قد تبدو مغايرة للرؤية التي تلبسته قبل الدراسة .. لم يعد بال البيهاني منشغلا بتلك الخلافات التي شغلته من قبل .

لقد عاد الشيخ وهو يحمل عبء مشروع تنويري كبير أراد الاضطلاع به من أجل نشر العلم والمعرفة وتفتحت ذهنية هذا العالم الجليل فأصبح مهموما بقضايا أكبر، ومنشغلا بمشاريع أعظم وأجل.

أدرك إدراكا يقينيا بأن انتشار البدع في الدين وتلويث المعتقد بطقوس استنبطها الجهلة والمشعوذون وألصقوها بالدين والدين منها براء قد تم في ظل

سيادة الجهل والتخلف والاستعمار وبأن تطهير الدين وتبيان نصاعة حجته البيضاء لن يتأتى إلا عن طرق العلم والارتقاء بمستوى التعليم.

إذا لا بد من إحداث نقلة نوعية جديدة تؤدي بعض هذه الأغراض التي كان يتوق لها، ولا بد لهذا الدور التنويري أن يتخذ أشكالاً متعددة ومنها المحاضرات والدروس والخطب التي كان يقوم بها في مسجد العسقلاني شبه يومياً ثم عن طريق الأحاديث والبرامج الدينية والاجتماعية التي استمرت إذاعة عدن في بثها من أواخر الخمسينيات وطوال عقد الستينيات من القرن الماضي، وللعلم فإن الأحاديث الإذاعية استمرت حتى بعد اضطراره لمغادرة عدن أواخر عام 1969 م واستقراره في (تعز) لم تنقطع أحاديثه الإذاعية التي كانت تبثها إذاعتنا صنعا وتعز إلى جانب المقالات التي كان قد كتبها للصحف المحلية والعربية أما كتبه فقد وصل عددها إلى نحو عشرين كتاباً ومصنفاً...

ولعل أعظم مشروع تنويري اضطلع به الشيخ البيحاني بجدارة قد تمثل بتأسيس وإنشاء المعهد العلمي الإسلامي عام 1957 م... وهو أول معهد دراسي على نطاق واسع استوعبت فصوله مراحل التعليم الأساسي والإعدادي والثانوي يصبح بعدها الخريج مؤهلاً للحياة العملية وفي تخصصات ومجالات علمية إلى جانب المواد الدينية والإسلامية وقد يرشح المعهد عدداً من أوائل الخريجين للابتعاث في الدراسات الخارجية العليا... كان المدرسون في المعهد محليين يمينين إلى جانب عدد من المدرسين العرب المنتدبين.

وضم المعهد أحدث المختبرات العلمية الحديثة، إلى جانب أكبر وأوسع مكتبة علمية في عدن حيث اشتملت على الآلاف من المصنفات والمراجع العلمية والدينية والثقافية والأدبية والتي جرى مصادرتها ونهبها وإحراقها للأسف في بداية السبعينيات من القرن الماضي تحت ذريعة أنها كتب برجوازية صفراء لا تتفق مع التوجه الماركسي التقدمي، ثم تم بعدها تأمين ومصادرة المبنى بكامله وإحالة لوزارة التربية والتعليم التي قامت بتحويله إلى (معهد لتدريب المعلمين) وفي عام 1981 م تحول إلى مبنى لوزارة الداخلية، وبقي هذا الحال مستمراً إلى أن جاءت الوحدة المباركة وصدر قرار رئيس الجمهورية عام 1990 م (علي عبد الله صالح) حفظه الله بإعادة المعهد إلى وضعه الطبيعي وإطلاق اسم البيحاني على المعهد.

4- البيهاني بين التنوير والسياسة :

ظل البيهاني - رحمة الله عليه - حريصاً على أن يظهر في الساحة وأمام الجميع كداعية وعالم ديني يعلم الناس ويفقههم في أمور دينهم ودينهم ويأمنه ليس له علاقة بالسياسة ودهاليزها، واستمر على هذه الحال ردحا طويلاً من الزمن حريصاً على أن يبدو في هذا الإطار .. حتى لا يتورط في صراع سياسي عابث مع مختلف الفرقاء والاتجاهات المتنازعة على الساحة وخاصة في العقدين الأخيرين اللذين سبقا الاستقلال الوطني في نوفمبر عام 1967 م ونذكر هنا بموقفه الصريح من الصراع الذي سبق الاستقلال بين الجبهة القومية وجبهة التحرير ودعوته الفرقاء إلى الاحتكام للعقل والحوار بدلاً من الاقتتال.

بدا البيهاني مصلاً اجتماعياً وداعية من الدعاة المصلحين الذي ليس لهم مصلحة سياسية وذلك ليس خوفاً من السياسة ولا تخوفاً من السلطة وإنما ترفعا عن طلب من الرئاسة وإبائه وأنفة عن التطلع إلى الجاه والتفوذ والمنصب ... ولكننا رغم ذلك - وفي إطار البحث - سنتناول هل كان البيهاني حقيقة يحرص أن يبدو للعيان بعيداً عن السياسة ؟ أم أنه تعمد أن يخفي أمام مشاريعه التنويرية مشروعاً سياسياً أرادته ؟

الحقيقة إن السياسة في عصرنا صارت داء لا بد أن يصيب الصغير قبل الكبير ولا يستطيع واحد منا الادعاء بأنه لا يمارس السياسة اعتقاداً وسلوكاً ودعوة بهذا القدر أو ذاك والسياسة صارت مرتبطة بكل مناحي الحياة الاجتماعية والفكرية والعلمية والدينية ومتداخلة و متشابكة معها ..

وديننا الإسلام عقيدة وشرعية وعبادة وسياسة أيضاً ولا يستطيع أحد أن يدعي أن الإسلام ليس له علاقة بالسياسة إلا إذا كان مكابراً أو جاهلاً؟ ... ولننظر في لمحات من سيرة حياة البيهاني ولنتعرف على علاقته بأقرانه وأصدقائه من السياسيين المعروفين من الذين كانت تربطهم علاقة قوية كيما نتعرف على الملامح السياسية في حياة الشيخ البيهاني.

ولنبداً من مصر التي بدأ البيهاني من خلالها مشوار العطاء الذي امتد بين التنوير والسياسة ...

شهدت مصر ميلاد أعرق حزب إسلامي سياسي في ثلاثينيات القرن الماضي وهو حزب (الأخوان المسلمين) وبعضهم يرجع الحزب إلى العشرينيات من القرن الماضي هذا الحزب العريق كان له في دور حرب 1948 م التي خسرها العرب أمام إسرائيل وفي نفس العام اغتالت المخابرات مؤسسه ومرشده العام الشيخ (حسن

البناء) هذا الحزب كان متغلغلاً - وما زال - لدى فئات كثيرة من الشعب المصري وخاصة لدى العلماء والطلاب في الجامعات، وفي الفترة التي درس فيها الشيخ البيحاني وقبلها وبعدها .. ولئن نتحدث عن الأدلة التي تزعم بأن للإخوان دوراً في الانخراط بتنظيم الضباط الأحرار وثورة 23 يوليو عام 1952م التي اندلعت نكاية بالملك لدوره المزعوم في استيراد الأسلحة الفاسدة وبالتالي خيانتة ومستوليتة عن هزيمة الجيش المصري مما أوغر صدور الإخوان ضد الملك ثم علاقة الود التي كانت بين الإخوان وأول رئيس مصري (محمد نجيب) والصراع والخلاف بين عبد الناصر ونجيب بسبب موقف الأخير المتعاطف مع الإخوان.

كما أن علاقة الإخوان بالشيخين الجليلين (محمد الغزالي) و (سيد سابق) (الصديقان المقربان من الشيخ البيحاني) كانت العلاقة قوية ووطيدة ومعروفة، ولا يعني هذا أنهما كانا من قيادات الحزب، وإنما نقول بأنه كانت لهما علاقة وطيبة وإن لم يكونا من القيادات الرسمية للإخوان ولننظر معاً إلى مؤلفات الغزالي في عقدي الأربعينيات والخمسينيات سنجد معظمهما لا تخرج عن إطار المنهج الإخواني وخاصة كتاب الغزالي (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) والذي صدر بعد أعوام قليلة من قيام ثورة يوليو فآثار ضجة كبيرة وسحب من الأسواق حينها ..

وفي القاهرة تعرف الشيخ البيحاني على رفيقي غربته (محمد محمود الزبييري) و (أحمد محمد نعمان) اللذان زاملا الزبييري في دراسته، فالزبييري هو الذي وضع المقدمة لكتاب البيحاني (أشعة الأنوار) بينما كان (النعمان) زميل البيحاني في الغرفة التي سكنا فيها معاً في القاهرة.

والزبييري والنعمان كلاهما من القوى الوطنية المعروفة التي كانت لها دورها الفاعل في الثورة السبتمبرية وقد توثقت علاقتهما بالبيحاني في عدن لدى فرارهما من بطش الإمام بعد حركة 1948م وقد أكدت كتابات تلك العلاقات القريبة التي كانت تربطهما بعناصر قيادية من الإخوان بل أن بعضهم

يجعل سبب اغتيال الزبييري هو اتجاهه الإسلامي المتعاطف مع نهج الإخوان؟ في عام 1949م أسس البيحاني مع الشيخ علي باحميش والشيخ علي بازرعه والشيخ علي عبد الله المحامي وآخرين ما سمي بـ (الجمعية الإسلامية)، بيد أنه لا توجد لدينا للأسف معلومات عن طبيعة عمل ونشاط هذه الجمعية ..

وفي بداية عام 1968م أي بعد الاستقلال الوطني بأشهر قليلة أسس الشيخ البيحاني مع آخرين سندكر بعضهم (المركز الثقافي الإسلامي) وكان مقره في

شقة تقع في إحدى عمارات (الخساف) بشارع الملكة أروي بكرير، وأتذكر هذا المركز جيداً لأنني كنت من المداومين على زيارته وأنا ما زلت حينها طالباً في الإعدادية، وأتذكر أن قيادة المركز تشكلت من عدد من الشخصيات منهم : الشيخ ناصر الشيباني (عضو مجلس الشوري حالياً) وإمام وخطيب جامع الرضا بالمنصورة (سابقاً) والأستاذ : حسين دلمارك : مدرس اللغة الانجليزية بثانوية عدن تم عبود (وأخيراً ثانوية البنات) والأستاذ الشيخ عبد الرحمن طرموم رئيس الحزب الإسلامي وكان يعمل حينها محاسباً في شركة توريد القات الحبشي توفى قبل أعوام في إحدى مستشفيات لندن وكذلك أذكر منهم الأستاذ الشيخ محمد عبد الرب جابر وآخرين .

كنا نجتمع في المركز بعد صلاة العصر نستمع لعدد من المحاضرات الدينية العلمية والثقافية إلى أن يحين موعد صلاة المغرب فنصليها جماعة هناك، وكانت في المركز مكتبة تضم عدداً كبيراً من الكتب الدينية والعلمية والتراثية ويسمح لنا باستعارة كتابين اثنين وبعد قراءتهما يتم إعادتهما ويمكن أخذ غيرها وهكذا .

ومما أتذكره أن الشيخ البيحاني كان حريصاً على إلقاء محاضراته الأسبوعية وكنا حريصين على حضورها لما يتميز به من موضوعية وجدة في تناول الموضوعات العصرية وربطها بالأدلة والشواهد والبراهين من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

وأتذكر حينها انه كانت توجد مكتبة أخرى تابعة للمركز واسمها على ما أظن (مكتبة الشهاب) تباع الكتب والصحف الإسلامية بأسعار رمزية وكان موقعها في (الرميت) أمام البريد والمنارة في كريتير .

للأسف لم يستمر نشاط المركز أكثر من عامين إذ سرعان ما استولى الماركسيون على السلطة في انقلاب 22 يونيو عام 1969م ولم يمض سوى شهر أو شهرين حتى شنت السلطات حملة شرسة على المركز فاغلقت وصادرت مكتبته ووثائقه وقامت باحتجاز واعتقال قيادة المركز وعلى رأسهم الشيخ البيحاني الذي تم احتجازه عدة أيام ثم أطلق سراحه خشية من أن يثير احتجاجه ضجة ولكونه ضريراً أعمى فقد اكتفوا بمراقبة بيته وتلفونه أما الآخرون فقد تواصل احتجازهم عدة شهور وبعضهم سنة وسنتان .

بعد هذه الحادثة بأسابيع قرر الشيخ البيحاني المغادرة والذهاب إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج ومنها إلى مدينة (تعز) التي استقر فيها وزاول فيها

الشيخ العلامة البيحاني بين المشروع التنويري والمنهج السياسي أحمد حسين بالو

نشاطه الدعوي إلى أن وافته المنية بعدها بنحو عامين فقط وتحديداً في 13 فبراير 1972 م .

لقد واجه البيحاني كغيره من مختلف القوى الوطنية نظاماً شاذاً وغريباً حتى على فطرة الحياة التي فطرها الخالق جل وعلا لعباده .
فالإسلاميون .. كهنوت ينبغي القضاء عليهم .. والقوميون (الناصريون والبعث) شوفينيون ينبغي التخلص منهم .
وحتى (الماركسيون) الذي انقسموا معهم في صراعات دموية صنفوهم تصنيفات يسارية ويمينية رغم أنهم على ملتهم ونهجهم وهكذا إلى إن جاءت الوحدة المباركة التي أنقذتنا من هذا الكابوس .

